ISSN: 1812-0512 (Print) 2790-346X (online)
Wasit Journal for Human Sciences
Available online at: https://wjfh.uowasit.edu.iq

Karim Qasim Jaber Al Rubaie
Ministry of Education / Maysan Education Directorate

* Corresponding Author Email: kareemqassm324@gmail.com

Keywords:
The Qur'anic text - The lamentation of Banu Abbad - Dalia Ibn Al-Labbanah Al-Andalusi - Absorption - Rumination.

Article history:
Received: 2024-07-01
Accepted: 2024-08-28
Available online: 2024-10-01

The Presence of the Qur'anic Text in the Lamentation of the Kingdom of Banu Abbad as a Model, Dalia Ibn al-Labbanah al-Dani Al-Andalusi (d. 507) as a Model

A B S T R A C T

This research deals with the study and analysis of Dalia Ibn al-Labbanah al-Dani, to reveal aspects of creativity, and to demonstrate the support of the presence of the Qur'anic text to the text of the poet Ibn al-Labbanah. Because of the linguistic and musical possibilities that this presence offers, and the wide meanings and connotations that allow the poet to enrich his texts with Qur'anic references. In addition to its remarkable atmosphere and contexts, the research concluded that the presence of the Qur'anic text in Ibn al-Labbanah al-Dani's Daliyah affected its language and its poetic images. Therefore, it became expressive of the tragic Andalusian event and its tragic scenes that befell the Banu Abbad and their state at the end of the fifth century AH, which changed the course of Andalusian history.

© 2024 wjfh.Wasit University
DOI: https://doi.org/10.31185/wjfh.Vol20.Iss4.654

حضور النص القرآني في رثاء مملكة بني عباد أنموذجاً، دالية ابن اللبانة الداني الأندلسي (ت ٥٠٧) أنموذجا.

م.د. كريم قاسم جابر الربيعي
وزارة التربية / مديرية تربية ميسان

الملخص

يتناول هذا البحث بالدراسةِ والتحليلِ داليَّة ابن اللبَّانة الدَّاني، للكشف عن جوانب الإبداع، وبيان مؤازرة حضور النص القرآني لنص الشاعر ابن اللبّانة؛ لما يقدمه هذ الحضور مِنْ إمكانات لغوية وموسيقية، ومعانٍ ودلالاتٍ رحبة، تتيح للشاعر تخصيب نصوصه بإشاراتٍ قرآنية، فضلاً عن أجوائه وسياقاته اللافتة، وقد استنتج البحث أنَّ حضور النص القرآني في داليَّة ابن اللبَّانة الدَّاني قد أثر في لغتها، وعلى صورها الشعرية، فصارت مُعبِّرة عن الحدث الأندلسي المأساوي، ومشاهده المفجعة الذي حلّ ببني عبَّاد ودولتهم في نهاية القرن الخامس الهجري، والذي غيّر مجرى التاريخ الأندلسي

الكلمات المفتاحية: النص القرآني، رثاء بني عبَّاد، داليَّة ابن اللبَّانة الأندلُسي، الامتصاص ، الاجترار.

المقدمة

إنَّ الحضورَ القرآني في داليَّةِ ابن اللبَّانة الدَّاني حضورٌ لافتٌ للنظرِ، وهذا الأمرُ يستدعي الانتباه والتأمل، ذلك أنَّ الأدبَ بصورةٍ عامةٍ، والشعرَ بصورةٍ خاصةٍ يحاولُ في استعمالِهِ للغةِ توظيف كُلّ طاقاتِها المعجمية، والبلاغية، والتركيبية، والإيقاعية، ومِنْ اجتماعِ هذه الطاقات وتوظيفها تتجلى لنا مواطن الابداع الحقيقي للشعرِ، والشاعرُ المُقتدر مَنْ يُوظِّف اللغة توظيفاً إبداعياً عَبرَ الروافدِ التراثية التي ينهلُ مِنْها ويستحضرها في إنتاجِهِ الشعري، وهذه الروافد ما هي إلّا وسيلةٌ لِإثراءِ لغته التي مِنْ دونِها تكونُ لغتُهُ قاصرةً عن وظيفتِها التعبيرية، والشاعرُ المبدع مَنْ يستطيعُ توظيف كُلّ ما أُثِرَ عن الماضي الشعري مِنْ معطياتٍ فنيةٍ، لتعميقِ رؤيته، وإحساسه بالاستمرار والتواصل الفنّي، فالشاعرُ عندما يتوجَّهُ إلى مُعطيات روافدِه التراثية فإنَّهُ لا يعمدُ إلى الإفادةِ الجامدةِ مِنْها التي تدخلُ في بابِ التكرارِ والتقليد، وإنَّما يهدفُ إلى إعادةِ صوغِ تلك المعطيات وتوظيفها خدمةً للنص الشعري.

ولعل ما حدا بالباحث إلى تناول فكرة (حضور النَّص القرآني في رثاء مملكة بني عبّاد، داليَّة ابن اللبَّانة الدَّاني –أنموذجاً) أنَّها لم تحظَ –في حدود اطلاعه– بدراسة مستقلة عالجت هذا الحضور، ووظفته بما يتناغم مع تجربة الشاعر الشعرية والشعورية، وهو ما هدف إليه البحث وابتغاه في نهاية المطاف، وذلك عَبرَ تواصل ابن اللبّانة بتراثه الديني.

أمَّا هدف البحث مِنْ دراسة داليَّة ابن اللبَّانة الدَّاني، فهو الكشف عن جوانب الإبداع، وبيان مؤازرة حضور النص القرآني لنص الشاعر ابن اللبّانة؛ لما يقدمه هذ الحضور مِنْ إمكانات لغوية وإيقاعية في ترصين المبنى، وتعميق المعنى.

وقد اتخذ البحث في دراسة القصيدة الداليَّة لابن اللبَّانة الدَّاني الأندلُسي، المنهج الوصفي التحليلي سبيلًا للوصول إلى النتائج المرجوة منه.

أمّا الدراسات السابقة، فلم يعثر الباحث –في حدود اطلاعه على دراسةٍ خُصصت لحضور النَّص القرآني في داليَّة ابن اللبَّانة، ولكن ثمة دراسات –في إطار موضوعه– رجع إلى بعضها، وأفاد مِنْها مُشيراً إلى موضع الإفادة.

وقد جاء البحث في: مقدمة، وتمهيد وأربعة مباحث ثُمَّ خاتمة خَلُص البحث فيها إلى أهم النتائج التي توصل إليها، ثُمَّ أعقبها قائمة المصادر والمراجع التي أفاد مِنْها الباحث

التمهيد

ابن اللبَّانة وداليَّته

يُعَدُّ ابن اللبّانة الأندلُسي (ت507هـ) واحدًا من كبار الشعراء الذين عاشوا في كنف الدولة العبادية، إذ رثى دولة بني عبَّاد بعد انهيار حكمهم على يد المرابطين المغاربة، إذ حرص على زيارة صديقه المعتمد بن عباد(التلمساني، 1388هـ، 211) ، في منفاه في المغرب، وصرّح في إحدى زياراته قائلاً: "إنَّها وفادة وفاء وليست وفادة استجداء(المصدر نفسه، 258).

وُلِدَ ابن اللبَّانة وتوفي بمدينة دانية، نُسب إلى أمه؛ لأنَّها كانت تبيع اللبن، تردد على ملوك الطوائف، وارتبط ببني عبّاد، لا سيّما المعتمد، الذي خصص له جلّ أشعاره فكان معدودًا في جملة شعرائه في آخر مدّتِهِ.

كان عبقرياً موهوباً، لا سيما في الفقه والحديث واللغة، وبعض العلوم الأُخرى التي كانت في زمانه، فضلاً عن ذلك كان يمتلك ثقافةً واسعةً، وموهبةً شعريةً ونثريةً(الصواف، 1418هـ، ص31)، وكان شاعراً مبدعاً ذا قدرةٍ على الارتجال، والنظم على البديهة، وهو الذي يقول(ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 102): [مِنَ الكامل]

مَنْ كان يُنفِقُ مِنْ سوادِ كتابِهِ فأنا الذي مِنْ نورِ قلبي أُنفِقُ

فشعره يعتمدُ على قريحةٍ قويةٍ، وطبعٍ جيّدٍ، جمع بين السهولةِ، والرشاقةِ، والجودة، واللطافةِ، مُتجنباً صعوبة الأفكار، صادقاً في معاناته الشعرية، مترجماً أحاسيسه وعواطفه الإنسانية بألفاظٍ مِنْ نورِ قلبهِ(ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 10) ، ومِنْ هنا يمكن القول: إنَّ معارف العصر وعلومه كانت صدى لشعره وشاعريته، فانعكس ذلك على نتاجه الفني(مداس، 2015م، 13).

والدالية التي نحنُ بصددها، مرثية له مطوله في الرثاء العاطفي تُعَدُّ صدى للنكبة التي عايشها (نكبة بني عبَّاد)، وقد ذاعت هذه القصيدة واشتهرت لما فيها مِنْ مشاعر الإخلاص والمودة والحسرة على المعتمد وأهله، لوصفها مشاهد السقوط التي تُثيرُ الحزن في النفوس، وقد صاغها الشاعر ببراعةٍ واتقانٍ عَبرَ توافر عناصر الشعرية مِنْ بناءٍ وإيقاعٍ وصورٍ، وفي طليعة عناصر شعريتها حضور النص القرآني في وحداتها البنائية، فارصَّن بناءها، وعمق معانيها، وهذب تجربة الشاعر، واتاح له أن يُقدمها تقديماً شعرياً مؤثراً.

فقد كانت دولة (بني عبّاد) في نظر الشاعر دولة الكرم، ومطلع الهمم، تهفو إليها الأرواح، وترتاح وتأنس فيها النفوس، وفيها تدفقت بحار الكلام(حجَّاجي، 1998م، 266) ، فنكبتهُ ب(المعتمد بن عبَّاد) عظيمة، وقد أحدثت تحولاً كبيراً في أُسلوبه، وعالجت نضج شاعريته، وجعلت شعره وجدانياً صادقاً يحسُّ فيه القارئ بصدق المعاناة، واكتواء الجوى، وحرقة الفقدان، وهذه المشاعر التي سكبها الشاعر في أبياتهِ ما هي إلا تعبيرٌ صادقٌ عن إحساسه بعظمِ الفجيعة، وفداحة الخطب، وعن كبتِهِ الشعوري المكنون في أعماق ذاته، وهذا ما سنحسه مصوراً، ونشاركُ ابن اللبّانة في تصوِّر فجيعته، والدخول في مديات حزنه وأجوائه لنعيش معه هذه التجربة القاسية المذهلة.

المبحث الأول: قوانين التناص

التناص أحد المصطلحات الأدبية الشائعة في الأدب الغربي، وانتقل إلى الدراسات العربية النظرية والتطبيقية وهو يقوم على فكرة أن النص لا يستقل بذاته، وإنما يتداخل مع النصوص الأخرى ويتفاعل معها، ويستمد منها أفكاراً وأساليب تتفاوت في القدر والنوع حسب القدرات الفنية لدى الأديب.

تتحدد قوانين التناص بالاجترار والامتصاص والحوار (بنيس، ١٩٨٥م، ٢٥٣). للكشف عن الكيفية أو التقنية التي تم بها الأخذ من نصوص أخرى، وللقارئ النموذجي أثر جوهري في هدف العملية، لما يقوم به من تلق واسترجاع وموازنة ومقارنة، ومن ثم "بتأويل المعنى المطلوب، وهذا هو الأسلوب الحديث في التأويل، إنه يزيل ويحفر وبينما هو يحفر فإنه يدمر، إنه يحفر خافي النص للعثور على نص فرعي هو النص الحقيقي" (سونتاغ، ١٩٩٢م، ٦٧).

ولابد من التنبيه إلى أن قوانين التناص لا تتحقق في النص الجديد إلا بعد التحرر والانفلات من قوالب النص القديم، ليصبح بعدها نصاً يمكن أن يتفاعل من خلال إعادة ترتيب البنى النصية بينه وبين النص المرجعي، وهي بذلك لا تشكل حضوراً نصياً إلا بعد تحقق التناص، ومنه يتضح أن علاقة التفاعل النصي الحاصلة بين العناصر الداخلية للنص والعناصر الخارجية له يمكن وصفها بأنها علاقة غير مباشرة، لأجل ذلك فَ " الفرق بين العلاقتين (الميتا نص/ التعالق النصي) تكمن في أن الأول يقوم بعملية توصيف للنص، بينما يقوم الثاني بعملية تحويل له مهما كان نوع هذا التحويل" (عذاوري، ٢٠١٢م، ٨٢).

استحضر ابن اللبَّانة الدَّاني –في داليَّتهِ هذه– كثيرًا من ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه، فضلاً عن معانيه وأفكاره وصوره، ووظفها في شعره بما يتناغم مع تجربته الشعرية والشعورية، ذلك أنَّ النص الشعري ما هو إلا حصيلة تفاعل نصوص سابقة، تحاورت وتداخلت ثُمَّ تفاعلت في بنية نصية جديدة، ومهمة الباحث الوصول إلى جذور هذه البنية الجديدة وإرجاعها إلى اصولها، ولعلَّ الشاعر في مرثيَّته هذه استعمل طريقة الامتصاص معتمداً في ذلك على الاستمداد الإشاري والدلالي مِنْ آيات القرآن الكريم، مع بعض التغيير الطفيف قصد الإشارة والإيحاء،

لإنتاج دلالته المبتغاة (بنيس، ١٩٨٥م، 252)، فضلاً عن طريقة الاجترار للنصوص المكررة، ولولا هذا الحضور لما استطاع الشاعر ابن اللبّانة أن يبلغ بتعبيره المعاني والدلالات التي أراد ايصالها.

المبحث الثاني: التناص بالاجترار

إن الاجترار هو استحضار للنص الغائب من دون تغيير أو تحوير، وهذا القانون يسهم في مسح النص الغائب، لأنه لا يطوره ولا يحاوره، بل يكتفي بإعادته كما هو، أو مع إجراء تغيير طفيف لا يمسّ جوهره، ويمارس النص سيطرته على الذات المبدعة، وتبقى النصوص الجديدة أسيرة النصوص السابقة (الفحام، ٢٠٢٠م، ٢٤).

لذلك " يتعامل الشعراء مع النص الغائب بوعي سكوني لا قدرة له على اعتبار النص إبداعاً لا نهائياً، فساد تمجيد بعض المظاهر الشكلية الخارجية في انفصالها عن البنية العامة للنص، حركة وسيرورة وكانت النتيجة أن أصبح النص الغائب أنموذجاً جامداً تضمحل حيويته مع كل إعادة كتابة له بوعي سكوني "(بنيس، ١٩٨٥م، ٢٥٣).

وكأنه استنساخ واستذكار للنص القديم يحدث دون إجراء تغييرات جوهرية عليه، فهو تناص مباشر " مع تغيير طفيف جداً، يحذف حرفاً يثبته بعد نفي أو العكس" (ابن مخلوف، ٢٠٠٨م، ٤٧).

ومِنْ ذلك قول ابن اللبَّانة الدَّاني في البيت الأول، مُعبراً عن حزنه لمّا حلَّ ببني عبَّاد (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 56):

تَبكِي السَّمَاءُ بِمُزنٍ رَائحٍ غَادِي عَلَى البَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ

تصدرت الصيغة الفعلية(تَبكِي السَّمَاءُ) الدالة على التجدد، للدلالة على ما أراده الشاعر مِنْ اختزال مشاهد الفجيعة، وعلى نفسيته المنكسرة، كأنَّ البكاء شامل حتَّى أنَّ السماء تبكي بغزارة(بدمعٍ رائحٍ غادٍ)، فلا بدَّ أن تكونَ الأرض وسكانها قد بكتهم، وقد صورها الشاعرُ أجمل تصوير مُستحضراً ذلك المعنى اجتراراً مِنْ قولِهِ تعالى:﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (سورة الدخان: الآية: 29)، وإنْ كان النفي في الآيةِ واضحاً إلا أنَّ الشاعرَ حوّل معناها إلى البكاءِ، فاستعمل طريقة الاجترار مع النص القرآني لإثبات معنى البكاء، ثمَّ أعقبها (بِمُزنٍ رَائحٍ غَادِي)، بطريقة الامتصاص للنص القرآني الغائب إشارةً إلى قولِهِ تعالى: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩﴾ (سورة الواقعة: الآية: 69)، فعبَّر عن دموعِ السماء (بالمزن) دلالةً على الخير الذي فقده بفقد (المعتمد بن عبَّاد)، ولم يُعبّر عنه (بالمطر) لأنَّ للمطر دلالة الشر، فالشاعرُ يستحضر النص القرآني في المرثيَّة اجتراراً وامتصاصاً، ويوظفه هذا التوظيف الأمثل، وهو ما يدلُّ على اتساعِ نظرته، وتنوع مصادر تجربته، فيُفجّرُ لنا مكامن الإبداع عَبرَ هذا الاستحضار الرائع، ولِمَ لا تبكِ السماء على بني عبَّاد البهاليل الذين كانوا كالجبال أوتاداً للأرض، وكُلّ هذه الأوتاد قد هُدَّت قواعدها فانهارت.

فالنص الغائب يصبح نموذجاً خالياً من الحيوية يوحي بالجمود في أغلب الأحيان. وبوجود ظاهرة التأثر والتأثير بين النصوص الأدبية يتأكد حتمية ظاهرة التناص، فالفنان بمعايشته للقراءات الفنية المتنوعة يختزن الكثير منها، ولا يمكن أن ينجز فعله الفني بمعزل عن ذاكرته، إلا أن المبدع المتحرر يعطي النص الحاضر بعداً جمالياً مختلفاً عن ذلك الذي كان متحققاً في النص الغائب. مما يظهر ذلك في خصوصية تعبيراته وذاته المبدعة، ويعمل على هضم النصوص الداخلة ضمن منجزه الجديد وذوبانها في دائرة الإنشاء التكويني الجديد الذي سيؤسس التناص فيه حواراً جمالياً وتنافذاً بين شتى انواع التراكم النصوصي والإبداعي (غرابي، تومي، ٢٠٢١م، ٧٢).

فيقولُ: (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 56)

عَلَى الجِبَالِ التي هُدَّت قَوَاعِدُهَا وَكَانت الأرضُ مِنْهُم ذَاتَ أوتَادِ

فالشاعر يصور ملك (بني عبَّاد) بالجبال التي دُكت وهُدَّت مِنَ الأرض بعدما كانت هي أوتاد هذه الأرض، وهذا اتكاءٌ مُكثفٌ على التعبير القرآني، فالمرجعية القرآنية حاضرة في داليَّة ابن اللبَّانة، وخاصةً في هذا البيتِ، فقد استحضر الشاعرُ قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ (سورة النبأ، الآية: 7)، مستعملاً طريقة الاجترار في تكرار النص، إنَّ المُتلقي عندما يُحسِنُ الظنَّ بالشاعرِ ويُحسُ أَنَّهُ قد استمدَّ ألفاظَه الشعرية وتراكيبه مِنَ القرآن الكريم يشعُرُ بثراءِ ذلك الشعر وقيمته الفنِّية؛ لأَنَّ القرآن الكريم مُعجزٌ في كُلِّ شيءٍ، ولا غرابةَ أَنْ يمتلكَ الشاعر الفنِّيةَ والجماليةَ والإيحائيةَ مِنَ القرآن الكريم لفظاً كان أم معنىً، ليستميلَ بهِ المُتلقي لشعرهِ.

فالتناص كما يراه مرتاض هو " الوقوع في حال تجعل المبدع يقتبس أو يضمن ألفاظاً وأفكاراً قد ألهمها في وقت سابق دون وعي صريح بهذا الأخذ المتسلط عليه من مجاهل ذاكرته ومتاهات وعيه " (مرتاض، ١٩٨٨م، ٥٥).

وفي المستوى الاجتراري للتناص يعيد الشاعر إعادة كتابة النص الغائب بشكل جامد لا حياة فيه، شاع هذا النوع في عصور الانحطاط، حيث تعامل الشعراء بطريقة نمطية مع النصوص الشعرية ولم يعتبروها إبداعاً.

ونتيجة ذلك ظهر تمجيد بعض المظاهر الشكلية الخارجية، كما أصبح النص الغائب نموذجاً جامداً تتلاشى فعاليته من خلال النص الحاضر، والمقصود بهذا القانون هو تكرار النص الغائب من دون تغيير أو تحوير وهذا القانون يساهم في مسح النص الغائب لأنه لم يطوره ولم يتجاوزه، واكتفى بإعادته كما هو أو من إجراء تغيير طفيف لا يمسّ جوهره (الشنيني، ٢٠٠٢م، ص12).

المبحث الثالث: قانون الامتصاص

إن الامتصاص " مرحلة أعلى في قراءة النص الغائب، وهذا القانون الذي ينطلق أساساً من الإقرار بأهمية هذا النص وقداسته، فيتعامل وإياه تعاملا حركياً تحويلياً لا ينفي الأصل، بل يسهم في استمراره جوهراً قابلا للتجديد، ومعنى هذا أن الامتصاص لا يجمد النص الغائب، ولا ينقده، إنه يعيد صياغته فحسب على وفق متطلبات تاريخية لم يكن يعيشها في المرحلة التي كتب بها، وبذلك يستمر النص غائباً غير ممحو ويحيا بدل أن يموت" (بنيس، ١٩٨٥م، ٢٥٣).

فمن خلاله " ينطلق الأديب من الإقرار بأهمية النص الغائب، وضرورة امتصاصه ضمن النص الماثل كاستمرار متجدد" (عزام، ٢٠٠١م، ٥٥).

ويتم التعامل في هذا المستوى مع النص تعاملا تحولياً لا يمحو الأصلي، بل يستجلب الناص تجربته في صياغة متجددة، ويغدو النص المرجعي غائباً حاضراً، وهنا يبرز أثر المبدع في كيفية تصرفه بالنص المسافر، أي كيف يستثمر طاقاته، ويضيف دلالات نصية جديدة، يمزجها بآرائه وأفكاره، لتعبر عن مشاعره وتوجهاته فتبدو أكثر عمقاً (مهدي، قوانين التناص، ٢٧).

والمستوى الامتصاصي أكثر تقدماً من المستوى الأول، لأنه ينطلق من الاعتراف بأهمية النصوص الغائبة، ويتعامل معها كحركة وتحول لا ينفيان الأصل، كما أن الامتصاص يقف موقف الحياد إزاء النص الغائب فلا يمدحه ولا يذمه، إنما يأخذ على عاتقه مهمة تطويع النص وإعادة صياغته وفق المتطلبات التي كتب فيها النص الحاضر، ولم يعشها النص الغائب في المرحلة التي كتب فيها (بنيس، ١٩٨٥م، ٢٥٣).

ويمتاز هذا القانون بآلية الدراسة القصدية والواعية للنص السابق، وامتصاص وهضم ما يدعم ويفعل النص اللاحق، ويكون هذا النص السابق بمثابة المواد الخام للنص اللاحق، مما يجعل من هذه الآلية فعلا جمالياً يضفي بعداً إبداعياً على كلا النصين (شعابث وعباس، ٢٠١٤م، ٥٩٦).

ويعاتبُ الزمان والدَّهر على ما فعله بالسادة الكرام مِنْ بني عبّاد، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 56):

وكعبةٌ كانت الآمالُ تعمرها فاليومَ لا عاكفٌ فيها ولا بادِ

فإنَّنا نلحظ في صدرِ البيت الإشارة إلى آيةٍ مِنْ الآيات القرآنية المباركة مِنْ دون أَنْ يلتزمَ الشاعرُ بلفظِها وتركيبها وذلك في قوله تعالى:﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ (سورة المائدة، الآية: 97)، وفي عجز البيت قوله تعالى:﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَٰكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ (سورة الحج، الآية: 25).

فهذان النصان القرآنيان اللذان نحس أثرهما في بيت ابن اللبَّانة الدَّاني أعطيا الدلالة الروحية القرآنية للنص، فكُوَّنَا بذلك جماليةَ المعنى التي شكَّلها الحضور القرآني، مستفيداً مِنْ طريقة الامتصاص في استمداد الإشارة والدلالة مِنْ آي القرآن الكريم، مع بعض التغيير الطفيف قصد الإشارة والإيحاء لإنتاج دلالتها المطلوبة، ولعلَّ

الشاعر استعمل أيضاً الثنائية بين الماضي والحاضر في هذا البيت، مُعبراً، في صدر البيت، عن أيام عزِّهم وملكهم الكبير، وفي عجزِهِ عمّا آل إليه حالهم مِنْ تشتتٍ وانهيار.

وينتقلُ ابن اللبَّانة في داليّته بعد ذلك لبيان أثر الزمان والدّهر على بني عبَّاد، وفعله بهم، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 57):

لمَّا دنا الوقتُ لم تُخلف له عدةً وكُلُّ شيءٍ لميقاتٍ وميعادِ

وقد أراد الشاعرُ، عَبرَ دلالة هذا البيت الَّذي اتسمَ بالتعبير القوي، أن يُهدِّئَ مِن روعهِ، ويُسلّي نفسه بهذا المضمون الشامل الموجود، فلا سبيل إلى الاستسلام للفجيعة، وتواتر الأحزان، ما دام (كُلُّ شيءٍ لميقاتٍ وميعادِ)، مِنْ قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ٣٨﴾ (سورة الرعد، الآية: 38)، وكذلك أراد أن يؤكد الحقيقة لما يجدُهُ الإنسانُ مِنْ تحقّق الوعد الإلهي الذي لا بدَّ مِنْه، فأضافَ بالحضور القرآني مِنْ قوله تعالى: ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٥٠﴾ (سورة الواقعة، الآية: 50)، قيمةً فنِّيةً وجماليةً للمعنى الَّذي أراد إيصاله إلى المُتلقي، وبهذا منح هذا الحضور الصبغةَ القرآنيةَ، وأكَّد على تحقيقِ الوعدِ الإلهي بأنَّ كُلَّ شيءٍ إلى انتهاءٍ عن طريق امتصاص المعنى المراد مِنْ النص القرآني الغائب، فأعطى لألفاظ بيته الشعري الدلالة الإشارية والإيحائية المطلوبة.

ثُمَّ غير حواره الخفّي مع طالبي المأوى مِنْ بني عبّاد، وبوساطة النداء يُفحمهم بهذه الحقيقة المرة المذهلة (خفَّ القطينُ وجفَّ الزرعُ بالوادي)، فنراه قد بيَّن خلو ديار بني عبَّاد مِنْ ساكنيها، وليس ثَمَّة زرع في واديهم الذي كان خصيباً، واليوم يشكو الجفاف، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 57):

و يا مؤمِّل واديهم ليسكنَه خفَّ القطينُ وجفَّ الزرعُ بالوادي

وهذه الفكرة جاءت متناسبةً ومتناسقةً مع فكرة المرثيّة الداليَّة، ومع جوّها العام بشكلٍ ملائم مِنَ ناحيتي الافكار والمعاني، وهي على ارتباطٍ وثيقٍ ببقيةِ الأبيات مُكونة معها هيكلاً متكاملاً، وقد أجادَ الشاعرُ في توظيفِ الحضور القرآني بطريقة امتصاص المعنى، وتشكيله بحسب الدلالة المبتغاة مِنْه في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ ﴾ (سورة إبراهيم، الآية: 37)، للدلالةِ على الروح القرآنية في البيت، وبذلك زاده الحضور جمالاً في المبنى، وعُمقاً في المعنى، وقد عَمِلَ الشاعر ابن اللبَّانة، عبرَ هذا الحضور القرآني، على تماسكِ البيت وترابطه ببقية إجزاء المرثيّة، فظهر البيت مع المرثيّة كأنَّه نسيجٌ واحد، وعبارةٌ واحدة، تآلفت فيه التراكيب والمعاني، فظهرت في صورةٍ واحدة.

ثُمَّ يفاجئ ابن اللبَّانة في مرثيته، ابن السبيلِ، ومَنْ ضلّوا السبيل، وكُلّ المحتاجين لكرمِ بني عبَّاد؛ لأنَّهم كانوا ملاذ المحتاجين، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 57):

ضِلَّت سبيل النَّدى يابن السبيل فَسِرْ لغيرِ قصدٍ، فما يَهديك مِنْ هادي

ولعلَّه في صدر البيت قام بتحوير المعنى مِنْ(ضِلَّت سبيل الندى)؛ ليصل إلى المضمون القرآني المراد في قوله تعالى: ﴿ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ (سورة المائدة، الآية: 12)، وليصل أيضاً إلى المعنى مِنْ (ابن السبيل) في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ (سورة الإسراء، الآية: 26)، واستحضر في عجز البيت بطريقة الامتصاص معنى (فما يَهديك مِنْ هادي) مِنْ قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾ (سورة الرعد، الآية: 7).

فقد أراد الشاعرُ عَبرَ دلالة هذا البيت الَّذي اتسمَ بالتعبير القوي أَنْ يُبرِزَ دلالةَ (فما يهديك مِنْ هادي) في تأكيد الحقيقة لابن السبيل، ومَنْ ضلَّ عن سبيله، ألا أمل لهم بنيل ما يحتاجون مِن بني عبّاد، فقد ولت دولتهم، وليس لنيل ذلك مِن سبيل، فأضافَ بالحضور القرآني قيمةً فنِّيةً وجماليةً للمعنى الَّذي أراد إيصاله إلى المتلقي، ولعلَّ الشاعرَ ابن اللبَّانة لم يجد أدلَّ مِنْ هذه الألفاظ ليُصوِّرَ لنا عطاء ساداته وكرمهم الذي كان أمل اللائذين والمحتاجين والضيف، اليوم لم يعد كذلك.

ويصفُ ابن اللبَّانة الخيانة التي قام بها بعض أفراد بني عبَّاد، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 58):

خانت أكفُّهم الأعضادَ فانقطعوا وكيفَ تقوى أكفٌّ دونَ أعضادِ؟

فهو في هذا البيت يكشف الخيانة التي حدثت ببني عبَّاد، فهو خطابٌ فيه تقريع، وتأنيب، وتعزير، ثُمَّ يكشف عن أسباب الخيانة؛ ذلك بتفرق الأكف والأعضاد، وهم بنو عبَّاد، مُوكداً حضور النص القرآني في عجز البيت مِنْ التكرار اللفظي ل(الأكف والأعضاد) بطريقة الامتصاص في قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا ﴾ (سورة القصص، الآية: 35)، فلو كانوا متحدين لمّا حدث ما حدث، وهو حضورٌ في محله، فقد صور المشهد بكُلِّ تفاصيله، وما زاد مِنْ جمال أبيات القصيدة الداليَّة أنَّ الشاعر ابن اللبَّانة الدَّاني كان يجدُ الأعذار المقنعة لبني عبَّاد في بداية القصيدة، ثُمَّ فجأةً نراه يخاطبهم بأسلوب التقريع والتأنيب واللوم، فهو صادقٌ في مشاعرِهِ، لأنَّه يعاتبهم عتاب المحبّ الناصح لمصالحِهم التي ذهبت أدراج الرياح بسبب تهاونهم، وعدم استشعارهم للخطر المتربص بهم.

ويوضِّح ابن اللبَّانة أثر غياب بني عبَّاد عن مملكتهم، ودولتهم، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 58):

غابتْ عن الفَلَكِ الأرضي أنجُمهُمُ فليسَ للسَّعدِ فيهم نورُ إسعادِ

وبُدِّلوا غيرَنا قوماً فنحنُ نَرى تركيبَ أرواحِنا في غيرِ أجسادِ

ولعلَّه أراد أنْ يوضِّحَ أثر بني عبَّاد في إسعاد النَّاس في أيام دولتهم، قبل نكبتهم، وأنَّ الذي حلَّ بهم مِنَ الخيانة، وسقوط دولتهم، لم يؤثِّر فيهم وحدهم، بل أثَّر في جميع مَنْ يعرفونهم، وكانوا تحت رعايتهم، وقد تنبه الشاعر إلى عدم وقوفهم بوجه هذه الخيانات ما أدَّى إلى أخذ (المعتمد بن عبَّاد) أسيراً، رهين القيود والأغلال، بعد أن كان ملكاً مُطاعاً، فامتص الشاعرُ ذلك المعنى في البيت الثاني والعشرين، مِنْ قوله تعالى:﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبۡكُمۡ

عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ (سورة التوبة، الآية: 39)، وأيضاً ومِنْ قوله تعالى:﴿وَإِن تَتَوَلَّوا يَستَبدِلْ قَومًا غَيرَكُم ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمثَالَكُم﴾ (سورة محمد: الآية: 38)، فخاصية الامتصاص مِنَ النص القرآني أضافت جماليةً ودلالة لنصه.

ويُعرجُ بنا لموضوعٍ مهمٍ ألا وهو الاعتبار والتأسي بمَنْ سبقهم مِنَ الدول الأُخرى التي أصابها ما أصابهم، راداً الحُسادَ والشامتين، وذكر بني العباس مثالاً لذلك التأسي، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 59):

وأسوَةٌ لهم في غيرِهم حَسُنت فما شماتةُ أعداء وحُسَّادِ

إن يُخلعُوا، فبنو العباسِ قد خُلعوا وقد خلتْ قبلَ حمصٍ أرضُ بغدادِ

نقولُ فيهم، وهم أعلى برامكةٍ فالحالُ ذا الحالِ إفسادٌ كإفسادِ

كانت أسرَّتُها مِنْ فضلها بهمِ مثلَ المنابرِ أعواداً بأعوادِ

ونلحظ في البيت الرابع والعشرين حضوراً قرآنياً بخاصية الامتصاص، وتحوير في التشكيل اللفظي ليكون مناسباً للمعنى، يُلمِّحُ بالأسوة لمِنْ قبلهم مِنَ الممالك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الممتحنة: الآية: 6)، وهذه الأبيات يُكملُ بعضها بعضاً بالحزنِ والألمِ واللوعةِ على ما أصاب بني عبَّاد.

ثُمَّ يُشيرُ ابن اللبَّانة إلى الحقيقة الحتمية لذهاب ملك بني عبَّاد، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 59):

إنَّا إلى الله في أيامهم، فلقد كانت لنا مثلَ أعراسٍ وأعيادِ

ونلحظُ الحضور القرآني بخاصية الاجترار مِنْ قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ (سورة البقرة، الآية: 156)، فتكرر (إنَّا إلى الله) و(إنَّا لله) و(وإنَّا إليه)، تكرار لفظي للآية المباركة.

ويستثمر الشاعر خاصية الامتصاص مع لفظة (مُعتصم)، والإشارة إلى معنىً آخر ربَّما يكون بعيداً نوعاً ما، فيقولُ:

همُ الشواهقُ فيها كهفُ معتصمٍ مثلُ الأباطحِ فيها خِصبُ مرتادِ

البيتُ يصوّر ناحيتين لبني عبّاد، هم كالجبال شموخاً يأوي إليهم اللائذ، وهم أباطح إذا طاب الموضع الخصيب، ويلحظ الباحث هذا التعادل الموسيقي بين شطري البيت، فإذا وضع كُلّ كلمةٍ مِن الصدر إزاء كلمة مِن العجز ساوته لها في اللفظ (الوزن)، ولعلَّ الشاعر استحضر مِنْ صدر البيت قوله تعالى:﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (سورة هود: الآية: 43)، بدليل قول الشاعر: (فيها كهفُ معتصمٍ)، فعبّر عنهم بهذا التعبير دلالة على حمايتهم للائذين بهم.

ويُقدِّم ابن اللبَّانة صورة محزنة لمّا آل إليه أمر بني عبَّاد فيقول (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 60):

ذُلّوا وكانت لهم في العزِّ مرتبةٌ تَحطُّ مرتَبَتي عادٍ وشدادِ

كانوا الملوكَ ملوكَ الأرضِ فانصرفوا وما لهم حومةٌ فيها ولا نادِ

تسيدت بنية التحوّل في عموم المرثية، ومِنها في هذين البيتين، فبعد العزِّ والسيادة أصبحوا أذلاء، وقد كانوا ملوكاً قبل الزوال، ولعلَّ ابن اللبَّانة الدَّاني استحضر هذا المعنى بخاصية الامتصاص مِنْ قوله تعالى:﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة التوبة:، الآية: 70)، ومِنَ البيت الثالث والثلاثين قوله تعالى:﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ (سورة النور، الآية: 55).

إنَّ استحضار الشاعر لهذا المعنى يُبيّنُ مآل أمرهم بعد عزهم وملكهم وسيادتهم، وثَمَّة تقارب بين النصين الحاضر والغائب هو (الذلّ للطرفين)، تأسس بفعل خاصية الامتصاص التي حوّر فيها الشاعر اللفظ ليكونَ متناسباً مع المقصدِ، ولعلَّ الأبيات بعد هذين البيتين، توضح الحقيقة المحزنة نفسها التي عاناها بنو عبَّاد، وبمعانٍ مشابهة لهذا المعنى.

المبحث الرابع: التناص الحواري

إن قانون الحوار " هو أعلى مرحلة في قراءة النص الغائب إذ يعتمد النص المؤسس على أرضية عملية صلبة تحطم مظاهر الاستلاب مهما كان شكله وحجمه، فلا مجال لتقديس كل النصوص الغائبة مع الحوار، فالشاعر أو الكاتب لا يتأمل هذا النص، وإنما يغير في القديم أسسه اللاهوتية. ويعري في الحديث قناعاته التبريرية والمثالية، وبذلك يكون الحوار قراءة نقدية لا علاقة لها بالنقد مفهوماً عقلانياً خالصاً أو نزعة فوضوية عدمية" (بنيس، ١٩٨٥م، ٢٥٣).

فشعرية النص تقوم على " القراءة الواعية المعمقة التي ترقد النص الماثل ببنيات نصوص سابقة معاصرة أو تراثية، وتتفاعل فيه النصوص الغائبة والماثلة في ضوء قوانين الوعي واللا وعي" (عزام،٢٠٠١م، ٥٦).

و" النص السابق بقدر ما يكون عائقاً أمام القدرة الضعيفة عند المبدع الذي يعيد إنتاج القول، يكون مدعاة للإبداع والتجاوز عند المبدع ذي القدرة الهائلة على قول أبدع مما قيل، وتاريخ الإبداع العربي يمدنا بنماذج ثرة وغنية بخصوص هذين الوجهين" (يقطين، ١٩٩٢م، ١٧،١٦).

والحوار تغيير للنص الغائب وقلبه وتحويله بقصد قناعة راسخة في عدم محدودية الإبداع، ومحاولة لكسر الجمود الذي قد يغلف الأشكال والثيمات والكتابة في الجديد، وتناسي الاعتبارات الدينية والعرفية والأخلاقية، والخوض في المسكوت عنه لضرورة الأدب لمثل هذه الحالة الصحية في الإبداع، والانفتاح نحو فضاءات نصية جديدة (مهدي،٢٠٢٠م، ٣٠).

من هنا فإن الحوار أو التناص العكسي (مفتاح، ١٩٩٤م، ١٨٨) هو الصيغة الأكثر شيوعاً في التناص، وخصوصاً في المحاكاة الساخرة، لما فيه من عمل للتضاد يذهب عكس الخطابات الأصلية المستدخلة في علاقة تناصية (جهاد، منتحلا، ١٩٩٣م، ٥٥).

فَهناك ثلاثة أنماط للحوار بين المقاطع الشعرية والنصوص الملموسة والقريبة من صيغتها الأصلية" (كرستيفا، ١٩٩٧م، صفحة٧٣).

فالتناص نوعان: " هما تناص الخفاء، وتناص التجلي، وإذا كان الأول هو عملية لا شعورية فإن الثاني هو عملية واعية" (نجم، العدد ٣١٨-٣١٧، 523).

ينتقلُ ابن اللبَّانة في داليّته بعد ذلك لبيان أثر الزمان والدّهر على بني عبَّاد، وفعله بهم، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 57):

لمَّا دنا الوقتُ لم تُخلف له عدةً وكُلُّ شيءٍ لميقاتٍ وميعادِ

وقد أراد الشاعرُ، عَبرَ دلالة هذا البيت الَّذي اتسمَ بالتعبير القوي، أن يُهدِّئَ مِن روعهِ، ويُسلّي نفسه بهذا المضمون الشامل الموجود، فلا سبيل إلى الاستسلام للفجيعة، وتواتر الأحزان، ما دام (كُلُّ شيءٍ لميقاتٍ وميعادِ)، مِنْ قوله تعالى:﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (سورة الرعد، الآية: 38).

وكذلك أراد أن يؤكد الحقيقة لما يجدُهُ الإنسانُ مِنْ تحقّق الوعد الإلهي الذي لا بدَّ مِنْه، فأضافَ بالحضور القرآني مِنْ قوله تعالى: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (سورة الواقعة، الآية: 50)، قيمةً فنّيةً وجماليةً للمعنى الَّذي أراد إيصاله إلى المُتلقي، وبهذا منح هذا الحضور الصبغةَ القرآنيةَ، وأكَّد على تحقيقِ الوعدِ الإلهي بأنَّ كُلَّ شيءٍ إلى انتهاءٍ عن طريق امتصاص المعنى المراد مِنْ النص القرآني الغائب، فأعطى لألفاظ بيته الشعري الدلالة الإشارية والإيحائية المطلوبة.

ثُمَّ غير حواره الخفّي مع طالبي المأوى مِنْ بني عبّاد، وبوساطة النداء يُفحمهم بهذه الحقيقة المرة المذهلة (خفَّ القطينُ وجفَّ الزرعُ بالوادي)، فنراه قد بيَّن خلو ديار بني عبَّاد مِنْ ساكنيها، وليس ثَمَّة زرع في واديهم الذي كان خصيباً، واليوم يشكو الجفاف، فيقولُ: (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 57)

و يا مؤمِّل واديهم ليسكنَه خفَّ القطينُ وجفَّ الزرعُ بالوادي

وهذه الفكرة جاءت متناسبةً ومتناسقةً مع فكرة المرثيّة الداليَّة، ومع جوّها العام بشكلٍ ملائم مِنَ ناحيتي الافكار والمعاني، وهي على ارتباطٍ وثيقٍ ببقيةِ الأبيات مُكونة معها هيكلاً متكاملاً، وقد أجادَ الشاعرُ في توظيفِ الحضور القرآني بطريقة امتصاص المعنى، وتشكيله بحسب الدلالة المبتغاة مِنْه في قوله تعالى:﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ (سورة إبراهيم، الآية: 37)، للدلالةِ على الروح القرآنية في البيت، وبذلك زاده الحضور جمالاً في المبنى، وعُمقاً في المعنى، وقد عَمِلَ الشاعر ابن اللبَّانة، عبرَ هذا الحضور القرآني، على تماسكِ البيت وترابطه ببقية إجزاء المرثيّة، فظهر البيت مع المرثيّة كأنَّه نسيجٌ واحد، وعبارةٌ واحدة، تآلفت فيه التراكيب والمعاني، فظهرت في صورةٍ واحدة.

ثُمَّ يفاجئ ابن اللبَّانة في مرثيته، ابن السبيلِ، ومَنْ ضلَّوا السبيل، وكُلّ المحتاجين لكرمِ بني عبَّاد؛ لأنَّهم كانوا ملاذ المحتاجين، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 57):

ضِلَّت سبيل النَّدى يابن السبيل فَسِرْ لغيرِ قصدٍ، فما يَهديك مِنْ هادي

ولعلَّه في صدر البيت قام بتحوير المعنى مِنْ(ضِلَّت سبيل الندى)؛ ليصل إلى المضمون القرآني المراد في قوله تعالى:﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة، الآية: 12)، وليصل أيضاً إلى المعنى مِنْ (ابن السبيل) في قوله تعالى:﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ (سورة الإسراء، الآية: 26)، واستحضر في عجز البيت بطريقة الامتصاص معنى (فما يَهديك مِنْ هادي) مِنْ قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (سورة الرعد، الآية: 7)، فقد أراد الشاعرُ عَبرَ دلالة هذا البيت الَّذي اتسمَ بالتعبير القوي أَنْ يُبرِزَ دلالةَ (فما يهديك مِنْ هادي) في تأكيد الحقيقة لابن السبيل، ومَنْ ضلَّ عن سبيله، أن لا أمل لهم بنيل ما يحتاجون مِن بني عبّاد، فقد ولت دولتهم، وليس لنيل ذلك مِن سبيل، فأضافَ بالحضور القرآني قيمةً فنِّيةً وجماليةً للمعنى الَّذي أراد إيصاله إلى المتلقي، ولعلَّ الشاعرَ ابن اللبَّانة لم يجد أدلَّ مِنْ هذه الألفاظ ليُصوِّرَ لنا عطاء ساداته وكرمهم الذي كان أمل اللائذين والمحتاجين والضيف، اليوم لم يعد كذلك.

ثُمّ يؤكد ابن اللبَّانة أنَّ ما حلَّ ببني عبَّاد كان سببه عدم أخذ الحيطة والحذر مِنْ أعدائهم وخصومهم مِنْ بني عبّاد أنفسهم، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 58):

مَنْ يُؤتَ مِنْ مأمنٍ لم يُجدِهِ حَذَرٌ وقاتلُ نفسِهِ ما إنْ له رادِ

ومَنْ يسدُّ عليه الضُرُّ ناظرُهُ فليسَ ينفعهُ أنَّ الضُحى بادِ

ففي البيت السادس عشر إشارة لمّا حدث لهم، إذ يتعالق الشاعر إشارياً مع قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ...﴾ (سورة البقرة: الآية: 85)، وثَمَّة تعالق إشاري آخر في البيت السابع عشر مع قوله تعالى:﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: 98)، وهذا هو سبب واقعهم المأساوي الذي أدى إلى انهيار دولاتهم، فالشاعر حوَّر في التشكيل اللفظي ليكون مناسباً لمقصدهِ.

ولعلَّ ابن اللبَّانة في قصيدته الداليَّة يستعملُ مفردة (مرصاد)، لتعطي معنى الحضور القرآني، مستعملاً بنية التحوّل المعنوي، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 58):

وليسَ يغنى موشَّىً مِنْ تحرُّزِهِ وحتفُهُ واقفٌ مِنْهُ بمرصادِ

فمفردة (مرصاد) توحي بالحضور القرآني، في قوله تعالى:﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرصَادًا﴾ (سورة النبأ، الآية: 21)، وهذا الأمر متكرر في قصيدته في غير موضعٍ مِنْ مواضعها، ولعلَّه أراد أنْ يُبيّن ما جرى لبني عبَّاد مِنْ نكبةٍ، وتعامل الشاعر مع النص القرآني الغائب كان واضحاً، وعن طريقه استطاع الشاعر إثراء مضمون بيته الشعري.

ثُمَّ يبيّن أنَّ ما حلَّ ببني عبَّاد كان بأيديهم، وذنبهم، بدلالة قوله: (وقاتلُ نفسِهِ ما إنْ له رادِ)، فهم مَنْ سعوا إلى حتفهم بتهاونهم وتجاهلهم الخيانات الداخلية التي حصلت داخل البيت العبادي، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 58):

لا عِطرَ بعد عروسٍ في حديثهم قد أقفر الحيُّ مِنْ هندٍ ومِنْ عادِ

فابن اللبَّانة في عجز البيت يبيّنُ خلو الديار مِنْ ساكنيها مُمتصاً هذا المعنى مِنْ قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت، الآية: 38)، وجاء هذا الحضور القرآني معبراً عن حالِ بني عبَّاد، ومآثرهم، ومساكنهم، فأقفرت وخلَّت مِنْ أهلها الدار.

ثُمَّ ويصفُ ابن اللبَّانة الخيانة التي قام بها بعض أفراد بني عبَّاد، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 58):

خانت أكفُّهم الأعضادَ فانقطعوا وكيفَ تقوى أكفٌّ دونَ أعضادِ؟

فهو في هذا البيت يكشف الخيانة التي حدثت ببني عبَّاد، فهو خطابٌ فيه تقريع، وتأنيب، وتعزير، ثُمَّ يكشف عن أسباب الخيانة؛ ذلك بتفرق الأكف والأعضاد، وهم بنو عبَّاد، مُوكداً حضور النص القرآني في عجز البيت مِنْ التكرار اللفظي ل(الأكف والأعضاد) بطريقة الامتصاص في قوله تعالى:﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجعَلُ لَكُمَا سُلطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيكُمَا﴾ (سورة القصص، الآية: 35)، فلو كانوا متحدين لمّا حدث ما حدث، وهو حضورٌ في محله، فقد صور المشهد بكُلِّ تفاصيله، وما زاد مِنْ جمال أبيات القصيدة الداليَّة أنَّ الشاعر ابن اللبَّانة الدَّاني كان يجدُ الأعذار المقنعة لبني عبَّاد في بداية القصيدة، ثُمَّ فجأةً نراه يخاطبهم بأسلوب التقريع والتأنيب واللوم، فهو صادقٌ في مشاعرِهِ، لأنَّه يعاتبهم عتاب المحبّ الناصح لمصالحِهم التي ذهبت أدراج الرياح بسبب تهاونهم، وعدم استشعارهم للخطر المتربص بهم.

ويوضِّح ابن اللبَّانة أثر غياب بني عبَّاد عن مملكتهم، ودولتهم، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 58):

غابتْ عن الفَلَكِ الأرضي أنجُمهُمُ فليسَ للسَّعدِ فيهم نورُ إسعادِ

وبُدِّلوا غيرَنا قوماً فنحنُ نَرى تركيبَ أرواحِنا في غيرِ أجسادِ

ولعلَّه أراد أنْ يوضِّحَ أثر بني عبَّاد في إسعاد النَّاس في أيام دولتهم، قبل نكبتهم، وأنَّ الذي حلَّ بهم مِنَ الخيانة، وسقوط دولتهم، لم يؤثِّر فيهم وحدهم، بل أثَّر في جميع مَنْ يعرفونهم، وكانوا تحت رعايتهم، وقد تنبه الشاعر إلى عدم وقوفهم بوجه هذه الخيانات ما أدَّى إلى أخذ المعتمد بن عبَّاد أسيراً، رهين القيود والأغلال، بعد أن كان ملكاً مُطاعاً، فامتص الشاعرُ ذلك المعنى في البيت الثاني والعشرين، مِنْ قوله تعالى:﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ (سورة التوبة، الآية: 39)، وأيضاً ومِنْ قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوا يَستَبدِلْ قَومًا غَيرَكُم ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمثَالَكُم﴾ (سورة محمد، الآية: 38)، فخاصية الامتصاص مِنَ النص القرآني أضافت جماليةً ودلالة لنصه.

ويعود إلى التسلّي مرةً أُخرى متكئاً على عرض الفجيعة في الإطار الجماعي، وفي دائرة التعزية وفناء كُلّ شيءٍ، وهو يُكرر فكرة الحكمة التي ذكرها في البيت الثامن مِنْ مرثيته الداليَّة، ولكن بشكلٍ فنيّ جديد، فيقولُ (ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م، 58):

هي المقاديرُ لا تُبقي على أحدٍ وكُلُّ ذي نفسٍ فيها لآمادِ

فابن اللبَّانة يستحضر النص القرآني، ويوظِّفه توظيفاً مثالياً، وهو ما يدلُّ على اتساعِ نظرته، وتنوع مصادر تجربته عَبرَ هذا الاستحضار الرائع، مُشيراً إلى امتصاص المعنى القرآني في صدر البيت مِنْ قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (سورة الرحمن، الآية:26)، وفي عجز البيت مِنْ قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ المَوْتِ﴾ (سورة آل عمران، الآية: 185)، وفي لفظة (آماد) مِنْ قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (سورة الرعد، الآية: 38)، وبهذا استطاع الربط بين أبياته عبر لُجوئِهِ إلى خاصية الامتصاص، وتأكيد غرض الحكمة في البيت الشعري. وعَبْرَ رحلتنا مع القصيدة الداليَّة في رثاء بني عبَّاد لابن اللبَّانة الدَّاني الأندلُسي، لاحظنا حضوراً إشارياً للتعبير القرآني، الذي أثَّر في ألفاظِهِ، إذ جاءت متنوعةً حسب المعاني التي عبَّر عنها الشاعر، فاللفظُ يكشفُ النِقابَ عن المعنى الكامن وراءه، وليس مِنَ الصعبِ، بمكان، أَنْ نَلحَظَ أهمية الألفاظِ أو الكلماتِ، فَكلَّما كان النصُّ أكثر أناقة، كانت الألفاظُ أو الكلمات أكثرُ قيمةً، وكانت الدلالةُ أرحبَ وأوسعَ، وكذلك لاحظنا أَنَّ مُعجَمَه الشعري أغناه بهذه الألفاظ والتراكيب والتعابير ذات الإيحاءات والمدلولات الشعرية القوية، وإنَّ الشاعرَ حريصٌ على توظيفِ النص القرآني، وإدخالِهِ في شعره سواء كان تصريحاً أم تلميحاً، وقد أضفى على نصوصه الشعرية قيمةً فنّيةً وجماليةً عاليةً، بإثراء الألفاظ، والمعاني، والموسيقى، بالقيم الموضوعية، والفنّية، ولعلَّ القصديةَ بتوظيفِ النص القرآني حاضرةٌ؛ لتأكيدِ التماسك النصي بين البيت الشعري، والنص القرآني المُستحضر.

خاتمة

بعد أنْ منَّ الله سبحانه وتعالى علينا بجميل فضله، وأنعم بواسع نعمه بإتمام هذا البحث، وانتهاء صحبتنا المشوّقة لداليَّة ابن اللبَّانة الدَّاني، وحضور النص القرآني فيها، والتدبّر بنصوصها الشائقة وتأمّلها باستمرار، والتعمّق في فهم ألفاظها، خلصنا إلى نتائجَ مِنْ أهمّها:

1- تميزت داليَّة ابن اللبَّانة الدَّاني بالصدقِ والحرارةِ؛ ذلك لأنَّ الشاعرَ يكتبُ مِنْ أعماق قلبه لهول المصيبة التي حلَّت ببني عبَّاد، فقد كان لوعيه بالمأساة أكبر الأثر في صياغة هذا التفجعُ.

2- إنَّ تعامل ابن اللبَّانة مع النص القرآني الغائب كان واضحاً وجليًّاً، وتراوح هذا التفاعل بين الاجترار والامتصاص، وعن طريقهما استطاع إثراء مضمون داليته.

3- إنَّ حضور النص القرآني في داليَّة ابن اللبَّانة الدَّاني قد أثَّر في لغتها، وعلى صورها الشعرية، فصارت مُعبِّرة عن الحدث الأندلسي المأساوي، ومشاهده المفجعة الذي حلّ ببني عبَّاد.

4- توظيف النص القرآني في الداليةِ شكَّل رافداً مِنْ روافدِ الخطاب الشعري، وعنصراً مِنْ عناصرِ الإبداع الفنّي، ووسيلةً مِنْ وسائلِ التعبير عن المعاني.

5- حضور النص القرآني اتاح للشاعر تخصيب نصوصه بإشاراتٍ قرآنية عَبرَ لفظةٍ أو معنى، وأنَّ كُلَّ الإشارات القرآنية إشارات تلميحية لا نصيَّة.

6- تبيَّن أنَّ أبيات المرثية الداليَّة تبدأ بالحزن والألم واللوعة على بني عبَّاد، ثُمَّ فجأةً نرى الشاعر يخاطبهم بأسلوب التقريع والتأنيب واللوم، ولعلَّه بهذا الأُسلوب يعاتبهم على تهاونهم، وعدم استشعارهم للخطر المتربص بهم.

7- حضور أكثر مِنْ نص قرآني في أغلب أبيات المرثية الداليَّة تلميحاً، خاصةً في خاتمتها الدعائية، ولهذا الحضور القرآني دلالة على تأكيد مضامين المرثية في تعزية بني عبَّاد.

المصادر والمراجع

1. ابن مخلوف، يحيى، التناص مقاربة معرفية في ماهيته وأنواعه وأنماطه، دار قانة للنشر والتجليد، الجزائر، ٢٠٠٨م.
2. بنيس، محمد، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيوية تكوينية، دار التنوير للطباعة والنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
3. التلمساني، أحمد بن محمد المقّري، نفح الطيب من غصن الأندلُس الرطّيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، دار صادر، بيروت، 1388هـ، 1968م.
4. جهاد، كاظم. منتحلا، أدونيس، دراسة في الاستحواذ الأدبي وارتجالية الترجمة يسبقها ما هو التناص؟ مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.
5. حجَّاجي، حمدان، ابن اللبَّانة الأندلُسي شاعر المعتمد، مجلة دراسات أندلُسية، ع19، تونس1998م.
6. ديوان ابن اللبَّانة الدَّاني، 2012م.
7. سونتاغ، سوزان، ضد التأويل، ترجمة: باقر جاسم محمد، مجلة الثقافة الأجنبية، العدد الثالث، ١٩٩٢م.
8. شعابث، عادل عبد المنعم. عباس، تراث أمين، تناص الشكل في فن ما بعد الحداثة، مجلة التربية الأساسية، جامعة بابل، آذار ٢٠١٤م، العدد الخامس عشر.
9. الشنيني، إيمان، التناص النشأة والمفهوم، مجلة أفق، ٢٠٠٢م.
10. الصواف، عواطف محمّد صالح بن محمّد بكر، شعر ابن اللبَّانة الدَّاني(دراسة وصفية تحليلية)، رسالة ماجستير، إشراف: محمد الحسين أبو سم، قسم الدراسات العليا العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة. (1418هـ).

11. طبل، ابتسام رجب عبد الجواد، المشاهد التاريخية المؤلمة عند ابن اللبَّانة (ت 507هـ) دراسة موضوعية، المجلة العلمية بكلية الآداب، جامعة الجوف، ع55. 2024م.
12. عذاوري، سليمة، شعرية التناص في الرواية العربية، تقديم: واسيني الأعرج، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
13. عزام، محمد، النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.
14. غرابي، بو بكر. تومي، سعيد، مقاربة نظرية في تقنية التناص، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، المجلد الرابع، العدد الثالث، سبتمبر ٢٠٢١م.
15. الفحام، عباس علي حسين، قوانين التناص في رسائل أبي العلاء المعري، مجلة جامعة الكوفة، العدد التاسع والخمسون، كانون الأول ٢٠٢٠م.
16. كرستيفا، جوليا، علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
17. مداس، أحلام، شعر ابن اللبَّانة الدَّاني (دراسة موضوعية وفنيَّة)، رسالة ماجستير، إشراف: د. عبد الحميد عباسي، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب، جامعة محمّد خيضر بسكرة، 2015م.
18. مرتاض، عبد الملك، في نظرية النص الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، العدد مئتان وواحد، كانون الثاني ١٩٨٨م.
19. مفتاح، محمد، التلقي والتأويل، مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
20. مهدي، إيناس محمد، قوانين التناص، عباس علي حسين الفحام، مجلة جامعة الكوفة، العدد التاسع والخمسون، كانون الأول ٢٠٢٠م.
21. نجم، مفيد، التناص ومفهوم التحويل في شعر محمد عمران، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، العدد ٣١٧،٣١٨، السنة ٢٧، أيلول تشرين الأول
22. يقطين، سعيد، الرواية والتراث السردي، من أجل وعي جديد بالتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م